الانضباطية العسكرية
التسييب الاجتماعي

مع مطلع كل شمس تقريبا، من شموس الزمن الكابي الشاحب هذا، تظلق الصحافة الاسرائيلية، ومن مانشيتاتها الرئيسية على الغالب، صيحات الدهشة المقاربة لعدم التصديق، حول فضائح اقتصادية وسلوكية وامنية جديدة، وتهز هذه الصيحات مجرى الحياة العادية (غير العادية) في المجتمع الاسرائيلي، انما الى حين. والحين المقصود هو انفجار فضيحة اخرى لا تقل عن سابقتها اثارة ان لم تتفوق عليها بدرجات، حسب مقياس "رختر".

ولعل فضيحة الفضائح في هذه الايام (وحتى كتابة هذه السطور) هي قضية الجنرال رامي دوتان من سلاح الطيران الاسرائيلي.

ولا تعنينا في شيء تفاصيل هذه القضية، والتي تتلخص في ان هذا الجنرال تلقى مع عدد من شركائه رشوات بمئات ملايين الدولارات في اطار صفقات تتعلق بسلاح الطيران.

الذي يعنينا هو الافق الفولاذي البارد والمعتم الذي تضربه حول الشعوب، جميع الشعوب، توازع العسكرة، واختيار النسق العسكري أنموذجا للحياة المدنية.

ويعج التاريخ، قديما وحديثاً، بالامثلة التي كان من شأنها ان

تقدم للبشرية عبرتها الناجزة، ومع ذلك فلا عبرة ولا من يعتبرون.

ولعل اقرب الامثلة، هو المغامرة الامريكية في فيتنام، لقد انطوت صفحات آلاف القتلى الامريكيين هناك، ولم يبق امام أبناء عائلاتهم سوى ان يعلقوا صورهم ذات الاطر السوداء على جدرانهم الحزينة.

أما صفحات الجرحى والمشوهين والمختلين عقليا ومدمني المخدرات والعنف، فقد ظلت مفتوحة الى يومنا هذا، ذلك ان العائدين من الخدمة العسكرية الى الحياة المدنية عادوا بكل ما اكتسبوه في ايام الغزو الدامية من عنف وحقد وهمجية وهلوسات ورعب ومخدرات وجرائم جنسية وفقدان السيطرة الذاتية، عادوا بكل هذه "الغنائم" ليسكبوها دفعة واحدة على مجتمع افرز الجريمة العسكرية ولم يتوقع ان تكون اشبه بالبوميرانغ، وانها ستعود اليه وعليه، وان عواقبها الوخيمة لن تقتصر على الضحية الفيتنامية، بل ستطال حتما، الجلاد الامريكي نفسه.

وبهذا المنظور، فلم ندهش نحن حين قرأنا قبل ايام ان رئيس بلدية نيويورك يطالب بفرض حالة الطوارىء على مدينته في محاولة يائسة للحد من انتشار وباء الجريمة هناك.

ولا ندهش حين نقرأ ان الجرائم في الولايات المتحدة تحصى بالثواني وبالدقائق لا بالايام وبالاسابيع.

وفي التاريخ القديم، عرفت اوروبا حالة مماثلة، على مستوى قاريّ، فحين عادت قطعان الجيوش الصليبية الى بلادها لم يجد زعماء اوروبا حاجة محلية للابقاء على الجيوش الجرارة تحت السلاح، فسرحوا جنودهم العائدين من حمامات الدم ومخاضات العنف والعذاب في الشرق العربي الاسلامي. وفجأة، وجد هؤلاء الجنود

انفسهم وجها لوجه ازاء البطالة والكساد والفقر والحرمان، فما كان منهم الا ان عادوا الى ممارسة المهنة الوحيدة التي يتقنونها، مهنة القتل، ولما لم يتوفر لهم هناك العرب والمسلمون المهيأون للذبح، فقد حولوا سلاحهم الى صدور ابناء شعوبهم والى نحور اولئك القادة الذين عبأوهم بشهوة القتال كما تعبأ ساعات الحائط، غير انهم لم يتمكنوا من ضبط اوقات الجريمة وفق مواعيدهم هم، فانقلب الجنود الاشاوس ذئابا جائعة وكلابا مسعورة ضالة تجوب اوروبا فيجوبها الرعب والسلب والنهب وقطع الطرق والاغتصاب، وتكونت "جماعات الارهاب" و "جماعات الطرق" و "جماعات المغامرة"- مكذا كانوا يسمونها آنذاك، مما اضطر الكنيسة والملوك والامراء والاقطاعيين إلى تنظيم قوات "مكافحة الارهاب".

ومن سخريات القدر ان حكام اوروبا وامريكا الجدد الذين ورثوا عن ابائهم واجدادهم شهوات الغزو والتوسع والبطش، ورثوا ايضا شعار "مكافحة الارهاب" غير ان الارهابي في نظرهم اليوم هو الضحية التي تتصدى لشهواتهم الدموية.

ونعود قليلا الى بلادنا، حيث كان النموذج الاسبارطي هو المثل الاعلى لاقطاب اسرائيل منذ تكوينها، وقد قالها دافيد بن غوريون صراحة وعلانية وبالبنط العريض، انه لا بد من وجود عدو خارجي دائم لاسرائيل حتى تصبح بلورة الشعب الاسرائيلي امرا ممكنا!!

ووجود هذا "العدو الخارجي" يعني ضرورة الابقاء على السلاح مشهرا على مدار عقارب الساعة. وقد أدت حالة الحصار والعزلة الى تكريس نفسية الجيتو والى تشجيع النظرة العدائية، والتشككية، في احسن حال، نحو كل من هو مختلف او مغاير، واصبحت القوة

العسكرية هي القوة العليا ماديا وروحيا واصبح الجيش الاسرائيلي نمطا اجتماعيا لا مجرد اطار عسكري الى جانب الحياة المدنية او من حولها.

وقد سمعت، باذني هاتين، الممرضات الاسرائيليات، وهن يعلن لبعض السيدات في مستشفيات الولادة: مبروك، لقد ولدت لنا جنديا جديدا!!

واصبح شعار "الجيدون الى سلاح الطيران" شعارا جذابا يدعو الى الفخر في المجتمع الاسرائيلي، بينما من الطبيعي في المجتمعات الطبيعية ان يكون الشعار مثلا، "الجيدون الى الصناعات الالكترونية"، او "الجيدون الى البحث الطبي" وما شابه من شعارات تحمل في جوهرها دعوة حقيقية الى الحياة والعمران والتطور، لا دعوة بائسة الى ادوات الدمار والهلاك والتخلف.

لقد بلغت العسكرة الاسرائيلية درجة التشبع، ولم يبق لها الا ان تتفجر في حالات الحرب واللاحرب معا، ذلك ان السلام لا يبدو اطلاقا في افق السياسة الاسرائيلية. وفي وضع كهذا فان الفضائح المتصلة بنسق الحياة العسكرية ستتكرر وستتفجر من جديد، ومع مطلع كل شمس من شموس هذا الزمن الكابي الشاحب. واذا كان حكام اسرائيل مهيأين، ولو قليلا، لاعادة النظر في استراتيجيتهم، لكان من شأنهم اكتشاف المأزق التاريخي الذي زجوا شعبهم فيه، ولكان من شأنهم ان يتحولوا عن سياستهم العدوانية، العقيمة في نهاية المطاف، الى سياسة البحث عن السلام، مع شعبنا العربي الفلسطيني، ومع امتنا العربية، ومع الحلم الانساني المجرد بحياة تسودها الطمأنينة ويضيئها العدل، وترتفع فيها كركرات الاطفال على اراجيح من حطام

المدافع.

وان الانضباطية العسكرية المؤدية حتما الى التسيب الاجتماعي، لا تشكل خطرا علينا نحن فحسب، انها قنبلة موقوتة داخل المجتمع الاسرائيلي نفسه.

والعبرة قائمة وماثلة ومعروضة بمنتهى الوضوح .. والسؤال هو: هل من معتبر؟!

«عبير» كانون اول ١٩٩٠